المنهـــج العلمي في التحليل الاقتصادي الخلـــدوني

الدكتور الطيب داودي
قسم العلوم الاقتصادية
كلية العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير
جامعة بسكرة- الجزائر

الملخّص

حاول ابن خلدون وضع قواعد منهجية لتصحيح أخطاء المؤرخين ومعالجة الظواهر العمرانية بصورة موضوعية، وتتمثل هذه القواعد فيما يأتي:

1- قانون العلية: (ربط السبب بالمسبب) فكل باحث يهدف إلى اكتشاف العلاقات بين الحادث وأسبابه، فعلى المؤرخ والباحث إدراك هذا القانون قبل أن يقرر واقعة أو حادثة، وعليه أن يتأكد من قانون السبب والمسبب، "يقول ابن خلدون شارحاً قانونه "إنّا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والإحكام بالأكوان وربط الأسباب بالمسببات، واتصال الأكوان بالأكوان، واستحالة بعض الموجودات إلى بعض، وهو لا تنقضي عجائبه في ذلك ولا تنتهي غاياته".

2- قانون التشابه: إن المجتمعات البشرية تتشابه في بعض الوجوه، وتختلف في وجوه أخرى، والمسبب المباشر لهذا التشابه هو الوحدة العقلية للجنس البشري، ويتمثل التشابه عند ابن خلدون في التقليد الاجتماعي.

3- قانون التباين: على عكس قانون التشابه فإن المجتمعات البشرية إذا كانت تتشابه في بعض أمورها فهي تتباين في أمور أخرى، ذلك أن دوام الحال على وضع واحد أمر مستحيل، وقد ربط ابن خلدون التباين بالتغيّر، إذْ إنَّ هذا الأخير يؤدي –حتماً- إلى ذلك الاختلاف بين المجتمعات البشرية، "وذلك أن أحوال العالم والأمم، وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة، ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال".

ووفقاً لما سبق نحاول في هذا المقال دراسة المنهج العلمي في التحليل الاقتصادي الخلدوني وذلك للإجابة عن الإشكالية الآتية:

"هل كان لابن خلدون منهج علمي في التحليل الاقتصادي؟"

ولتحقق هذه الإشكالية سنعتمد بشكل أساسي على منهج تحليل الموضوع.

تمهيد:

ولد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون في أول رمضان عام 732هـــ الموافق لـــ 27 ماي 1332 ميلادية بتونس وربي في حجر والده إلى أن أيفع، حفظ القرآن الكريم وكان أول ما بدأ به من علم، وقد حفظه مبكراً، ودرس كلاً من العلوم العقلية والنقلية وتعلم الفقه ونبغ فيه ودرس ما يسمى صناعة العربية والفنون الحكمية والتعليمية إلى أن بلغ سن الثامنة عشرة من عمره، كانت هذه السنة بداية مرحلة جديدة في حياته، حيث مات أبواه بالطاعون وهجر من تونس فحول العلماء الذين نجوا من هذه الآفة، ويصف ابن خلدون هذه الكارثة قائلاً: "لقد طوت البساط بما فيه" وعلل هذا بقوله: "ذهب الأعيان والصدور وجميع المشيخة وهلك أبواي رحمهما الله"، وكانت هذه الرحلة نهاية الدراسة المنتظمة التي كان يرعاها والده وجملة من خيرة علماء ذلك العصر.

وفي 26 من شهر رمضان 808 هـــ الموافق 16 أفريل 1406م توفي العلامة ابن خلدون فتوارى الجسد، وبقي حياً بالفكر والذكر الذي يزداد في كل زمن حياة -رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه-.

إن المتتبع لحياة ابن خلدون يدرك عظمة العوامل التي أثرت في فكره، فمن عائلة سادت وشادت في العلم والسياسة والرياسة؛ ترجع جذورها إلى الصحابي وائل بن حجر الذي عينه الرسول "صلى الله عليه وسلم" بمهمة علمية عظيمة في يمن العلم والحكمة والحضارة، إلى عصر عرف كل التناقضات وشهد شتى الظواهر، واختبر الأحوال كلّها، من تقدم، وانهيار، وسقوط، وهبوط، وقوة واضمحلال، ودسائس ودهاء..إلى شخصية مارست ميدانياً التجارب ووقفت على آثارها ونتائجها، وأسهمت في الحركية السياسية والعلمية، وكانت الدولاب الذي تدور عليه عجلة الحياة السياسية، ثم العلم والقضاء وحلاوة السلطة وشغفها.. ومرارة السجن وظلم الزمن بهلاك أسرته كلّها وذهاب ماله وظلم العباد.
فكانت خلاصة هذه المعاناة البشرية الخلدونية فكراً علمياً غير مسبوق، جعل صاحبه حياً حياة أبدية.

1: المنهج العلمي عند ابن خلدون.

نعرض في هذا الجزء توضيحاً مفهوماً المنهج وأنواعه عند كبار المؤرخين السابقين لابن خلدون، ومقارنة منهجه ببعض مناهج العلماء، ثم نتكلم عن أهم الفروض في منهج ابن خلدون وذلك في النقاط الآتية:

1. 1 : مفهوم المنهج عند ابن خلدون.

المنهج هو الطريق الواضح والسلوك البيّن، والسبيل المستقيم الذي يؤدي إلى بلوغ مرام البحث والباحث بأقل التكاليف والجهود، وذلك لاكتشاف الحقائق العلمية، ولذلك تحدد الأهداف المراد بلوغها

مسبقاً، ولابدَّ في تحقيق هذه الأهداف من دراسة الأسس العلمية وطرقها المؤدية إلى هذا التحقيق، وإن من شروط المنهج العلمي الصحيح أن يكون ملائماً للظروف المختلفة وأن يكون مستمداً من حاجات المجتمع وثقافته، وأن تربط موضوعاته بشؤون الحياة الحاضرة وأن تكون مواده وخبراته متماسكة.

والدارس لمقدمة ابن خلدون يجد هذه الشروط متجسدة في المنهج الذي سلكه في تأليف معرفته العلمية الموسومة بالعمران البشري، فقد كان سبيل ابن خلدون واضحاً منذ البداية، نابعاً من الظروف المختلفة التي كانت سائدة، مستمدة من ثقافة مجتمعه وواقعه المعيش، مرتبطاً بشؤون تلك الحياة والوقائع التي عايشها ابن خلدون وخبرته التي اكتسبها عن طريق الممارسة والملاحظة والطرق والوسائل المتاحة.

وإذا كانت طبيعة موضوع البحث هي التي تحدد منهج الدراسة[1]، وإذا كان موضوع ابن خلدون هو العمران البشري والاجتماع الإنساني، فإن منهجه كان يركز على مقتضى الأسباب والعلل والدواعي للواقعات أو الحقائق سواء كانت اجتماعية أم اقتصادية أم سياسية أم غيرها، ذواتاً كانت أم أفعالاً، وهو في سبيل تحقيق هدفه يضع استنتاجاته في شكل قضايا عامة، ثم يبدأ في تحليلها مستعملاً "والتسبب في ذلك"، "وذلك لأن" ويقرر ابن خلدون رأيه في ربط الأسباب بالمسببات فيقول: "إنا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والإحكام، وربط الأسباب بالمسببات، واتصال الأكوان بالأكوان واستحالة بعض الموجودات إلى بعض، لا ينقضي عجائبه في ذلك ولا تنتهي غاياته"[2] .

إن المنهج الذي سلكه ابن خلدون؛ وهو البحث عن المسببات والأسباب والنتائج جعله يتميّز عمن سبقه، وفي كثير من الأحيان عمن جاؤوا بعده، ولذلك يبيّن بأن الاكتفاء بوصف الظواهر وسرد الأخبار دون التحليل والتعليل، لا يفضي إلى الكشف عن الحقائق العلمية والقوانين التي تخضع لها الظواهر الطبيعية، ويضرب مثلاً للتاريخ فيقول: "...في ظاهرة (التاريخ) لا يزيد أخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأول... وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعدُّ في علومها وخليق"[3]

---

[1]– فضيل ديليو وآخرون، **أسس المنهجية في العلوم الاجتماعية**، منشورات جامعة قسنطينة، الجزائر 1999، ص26.

[2]– عبد الرحمن ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، دار القلم، بيروت، ط 6، 1986، ص95.

[3]– **المقدمة**، مرجع سابق، ص04.

إن تدبر هذه العبارة الخلدونية كاف للإجابة عن علمية منهج ابن خلدون، فهي في حد ذاتها قواعد أصلية للمنهج العلمي، نذكر منها ما يأتي:

- نظر وتحقيق.
- تعليل للكائنات ومبادئها دقيق.
- علم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق.
- أصيل في الحكمة عريق.
- جدير بأن يعدَّ في علومها وخليق.

وكأن ابن خلدون قد وضع من خلال هذه العبارات المنهج العلمي الذي يتدرج في العلمية والمنهجية الموضوعية، فيبدأ بالنظر والتحقيق كخطوة أولى، ثم مع كيفيات الوقائع والأسباب الحقيقية لوقوعها ليصل من خلال هذه الخطوات للحكم على أن هذه المعرفة جديرة بأن تكون علماً.

إن تحقيق هذا المنهج العلمي الدقيق عند ابن خلدون يبدأ بالتساؤل عن كيفية حدوث الوقائع وسبب وقوع هذه الأحداث، إذْ يستعمل في ذلك أدوات السؤال، لماذا، وماذا وكيف[1]، تجعل منهجه يرتقي إلى المراتب العليا للمناهج العلمية المعتمدة في السابق والحاضر وسنحاول أن نعرض لهذا في الفرع الآتي:

1. 2 : بين منهج ابن خلدون ومناهج العلمـــاء الذين سبقوه:

سنعقد بعض المقارنات بين منهج ابن خلدون ومناهج بعض العلماء الذين سبقوه في دراسة التاريخ، وذلك لأجل الكشف عن أهمية المنهج العلمي الذي بنى على أساسه ابن خلدون معرفته العلمية الاقتصادية والاجتماعية وغيرها، وكبار العلماء الذين سبقوا ابن خلدون ولاسيما مجال الدراسات التاريخية هم: الطبري والمسعودي، أمَّا من تتلمذ على يد ابن خلدون وعاصره وكتب في التاريخ فهو المقريزي. وسنتطرق باختصار إلى المنهج المتبع في دراسات هؤلاء العلماء فيما يأتي:

1. 2. 1: المنهج العلمي عند الطبري.

هو محمد بن جرير الطبري مؤلف كتاب (تاريخ الأمم والملوك)، وهذا الكتاب التاريخي الثري تقع مقدمته في أربع صفحات، وقف مؤلف الكتاب عند مشاهدته الخاصة، واكتفى بالنقل عن الرواة نقلاً أميناً، دون أن يتساءل عن الكيفيات التي جمعت بها هذه الأخبار ولا حتى أن يشك في صدقها، ويقر بهذه الأمانة - النقل دون تجريح ولا تعليل - ما يأتي: "وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادي في كل ما أحضرت ذكره فيه، مما شرطت أني راسمه فيه، إنما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها

فيه، والآثار التي مسندها إلى رواتها فيه، دون ما أدرك بحجج العقول وأستنبط بفكر النفوس إلا اليسير القليل منه، إذا كان العلم بما كان من أخبار الماضين، وما هو كائن من أبناء الحادثين غير واصل إلى من لم يشاهدهم، ولم يدرك زمانهم، إلا بأخبار المخبرين، ونقل الناقلين دون الاستخراج بالعقول والاستنباط بفكر النفوس.

فما يكون من خبر في كتابي هذا يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهاً من الصحة، ولا معنى في الحقيقة، فيعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا، وإنما أتي من بعض ناقليه إلينا، وأنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدي إلينا" [1] .

ومن هذه العبارة تبيّن المنهج الذي سلكه الطبري في كتاباته والمتمثلة في الحقائق الآتية:

- كل ما جاء فيه إنما هو ما روي من الأخبار.
- الإسناد في دراسته للرواة.
- عدم استعمال العقل للتحليل والاستنباط.
- الاعتراف بأن ما كتبه فيه من الأمور التي لا يقبلها العقل وليس له معنى في الحقيقة.

وهكذا يتفوق منهج ابن خلدون باتباعه طريق تمحيص الأخبار وفي الصادق منها من الكاذب، بل البحث عن الأسباب والمسببات والآثار والنتائج لوقوعها.

1. 2. 2 : المنهج العلمي عند المسعودي.

هو علي بن الحسين بن علي المسعودي مؤلف كتاب: "مروج الذهب ومعادن الجوهر في التاريخ" وتقع مقدمة هذا الكتاب الشهير في أربع عشرة صفحة يقول في المنهج الذي اتبعه في تأليف كتابه: ""ولم نذكر من كتب التواريخ والأخبار والسير والآثار إلا ما اشتهر مضيفوها وعرف مؤلفوها".[2]

ومن هذا يتجلى منهج المسعودي فيما يأتي:

- ارتكز على سمعة المؤلفين والمصنفين.
- عَدَّ الشهرة المقياس العلمي للمعرفة.
- نقل بهذه الثقة الصحيح والخطأ عمن عدَّهم ثقاة.
- استبعد التحليل العقلي والتمييز المنطقي واعتمد المنهج الوصفي الخبري.

---

[1]– الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، المطبعة الحسينية، تاريخ الطبع غير مذكور، ص05.

[2]– المقدمة، مرجع سابق، ص108.

ولهذا، فقد تكلم عنه ابن خلدون في أكثر من حادثة وفندها، ومنها المدينة المبنية كلية بالنحاس في صحراء سجلماسة، وجيوش بني إسرائيل عهد موسى.

يقول ابن خلدون: "...فيسلطون الفكر على الأمر الذي يتوجهون إليه ويأخذون فيه بالظن والتخمين بناء على ما يتوهمونه من مبادئ ذلك الاتصال والإدراك ويدعون بذلك معرفة الغيب، وليس منه على الحقيقة هذا تحصيل هذه الأمور وقد تكلم عليها المسعودي في مروج الذهب فما صادف تحقيقاً ولا إصابة منهم".[1]

1. 2. 3 : المنهج العلمي عند المقريزي.

هو أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم المقريزي، ويكنى بتقي الدين المقريزي، مؤلف كتاب "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار".

يقول في مقدمته شارحاً منهجه: "..قصدت في هذا الكتاب، فإني سلكت فيه ثلاثة أنحاء وهي:

- النقل من الكتب المصنفة في العلوم.
- الرواية عمن أدركت من شيخة العلم وجلة الناس.
- المشاهدة لما عاينته ورأيته.

وهكذا يتبيّن أن المقريزي الذي عاصر ابن خلدون وتتلمذ عليه لم يكن له القدرة العقلية الكافية للتحليل والاستقراء والاستنتاج.

ومن هذا يمكن ملاحظة التشابه في المنهج بين كبار هؤلاء العلماء الذين ينقلون عمن سبقهم، ويَرْوونَ عمن وضعوا فيهم الثقة ويستبعدون التحليل العقلي والشك والتمحيص من باب مراعاة أمانة النقل والرواية وصدق التسجيل، أمَّا ابن خلدون الذي كتب مقدمة تربو صفحاتها على ستمئة صفحة، اهتدى إلى المنهج العلمي لحقيقة الأخبار وسماه العمران البشري وماله من طبائع وأحوال[1]، وهو الذي يقول عن مناهج العلماء الذين سبقوه: "ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها، ولا رفضوا ترهات الأحاديث ولا دفعوها؛ فالتحقيق قليل، وطرف التنقيح في الغالب كليل، والغلط والوهم نسيب للأخبار وخليل، والتقليد عريق في الآدميين وسليل، والتطفل على الفنون عريض طويل، ومرعى الجهل بين الأنام وخيم وبيل، والحق لا يقاوم سلطانه، والباطل يقذف بشهاب النظر شيطانه، والناقل إنما هو يملي وينقل، والبصيرة تنقد الصحيح إذا تمقَّل والعلم تجلو لها صفحات القلوب ويصقل"[2]

---

[1]– المقدمة، مرجع سابق، ص108.

[2]– المقدمة، مرجع سابق، 04.

ومن هذا يبيّن ابن خلدون الفرق بين منهجه ومنهج العلماء السابقي الذكر وهو:

- عدم ملاحظة أسباب الوقائع والأحوال.
- عدم رفض ترهات الأحاديث.
- قلة التحقيق والتنقيح.
- وجود الأخطاء والوهم، والاعتماد على التقليد والمحاكاة.
- التطفل على العلوم بشكل واسع.
- الجهل المنتشر بين الناس انتشاراً كبيراً.
- اختفاء البصيرة في النقل وتمحيص الصحيح من الخطأ.
- عدم استعمال المنهج العقلي الذي هو الوسيلة الفعالة للحكم على الأشيـــاء.

وهكذا تتدعم علمية المنهج عند ابن خلدون، فهذه الملاحظات التي لاحظها كلّها في مناهج غيره استبعدها هو لتكون دراساته مبنية على منهج عقلي تجريبي استقرائي علمي.

1. 3 : أهم الفروض في منهج ابن خلدون.

إن عمق الأسلوب الذي انتهجه ابن خلدون وأصالته في علمه الجديد الموسوم بالعمران البشري، لا يختلف فيه اثنان، وذلك لاتجاهه العلمي الدقيق والتزامه بالموضوعية وعدم التحيز، والطبيعة العلمية الاستنتاجية التي توصل إليها، ورغم هذا فإن توضيح الصفات العامة التي تميّز فكره، ومنهج علمه يحتاج إلى فروض أساسية يستند إليها.[1] وسنحاول تقديم فرضين من بين أهم الفروض التي يستند إليها المنهج الاقتصادي عند ابن خلدون وذلك فيما يأتي:

1. 3. 1: التعليل الاقتصادي والاجتماعي.

يعدُّ أسلوب التعليل من أبرز سمات المنهج عند ابن خلدون، وسنحاول توضيح ذلك من خلال بعض النصوص لابن خلدون حيث يقول: "اعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم من المعاش...إن أهل البدو وهم المنتحلون للمعاش الطبيعي من الفلح والقيام على الأنعام، وأنهم مقتصرون عما فوق ذلك من حاجي أو كمالي... والحضر ومعناه الحاضرون أهل الأمصار والبلدان، ومن هؤلاء من ينتحل في معاشه الصنائع ومنهم من ينتحل التجارة، وتكون مكاسبهم أنمى وأرفه من أهل البدو، لأن أحوالهم زائدة على الضروري، ومعاشهم على نسبة وجدهم... فيتخذون القصور

[1]– محمد محمود ربيع، **النظرية السياسية لابن خلدون**، دار الهناء للطباعة، القاهرة، 1981، ص19.

والمنازل، ويجرون فيها المياه، فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة، ولهذا نجد التمدن غاية البدوي يجري إليها، وينتهي بسعيه إلى مقترحه منها، وما تحصل على الرياش الذي يحصل له به أحوال الترف وعوائده عاج إلى الدعة وأمكن نفسه إلى قيادة المدينة.[1]

ويتبيّن من هذه الفقرة كيف يعلل ابن خلدون الانتقال من مجتمع البداوة إلى الحضارة، باستخدام وسائل المعيشة. ففي مجتمع البداوة الطبيعية الضرورية، تتميّز هذه الحاجات عادة بالقلة وعدم التنوع، ويمتاز الأسلوب المعاشي بالخشونة والصلابة، حيث يسيطر الأنا العُصبي على الأنا الفردي، ويكون مبدأ الإسهام والمشاركة هو السائد.

أمَّا عندما يبدأ الرخاء في الظهور فتبدأ خشونة البداوة تختفي شيئا فشيئا لأن التمدن يصبح غاية يجري إليها البدوي، وينتهي بسعيه إلى نيل نصيبه منها وعندها تنقلب خشونة البداوة إلى رقة الحضارة عن طريق انتحال أسلوب جديد للعيش يحصل فيه البدوي على الرياش وأحوال الترف وتتغيّر بذلك عادات البادية لتحصل محلها عادات الحضر.

ومن هذا يتبيّن بأن درجة التطور تتوقف على الطريقة التي يحصلون بها على معاشهم، ويعلل ابن خلدون هذا التطور والتحول قائلاً:

"وذلك أن القبيل إذا حصل لهم الملك والترف كثر التناسل والولد والعمومية،... ويتجاوزون ضرورات العيش وخشونته إلى نوافله ورقته وزينته... وينزعون من ذلك إلى رقة الأحوال في المطاعم والملابس والفرش والآنية ويتفاخرون في ذلك".[3]

إن من أهم التعليمات الاقتصادية لفرضية منهجه هو تقسيم العمل، هذا الأخير الذي نال به آدم سميث لقب رائد الاقتصاد، فقد قام ابن خلدون بدراسة وافية وكافية عن تقسيم العمل وقدم الأسباب والعلل لذلك.

يقول ابن خلدون: "...إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة على تحصيل حاجاته من ذلك الغذاء غير موفية له عادة حياته، ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلاً فلا يحصل له إلا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ، وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة تحتاج إلى مواعين وآلات لا يتم إلا بصناعات متعددة، من حداد ونجار وفاخوري، وهب أنه يأكله حباً من غير علاج فهو أيضاً يحتاج في تحصيله حباً إلى أعمال أخرى أكثر من هذه من الزراعة والحصاد والدراس، ويحتاج

[1]– المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي، دار النهضة مصر، القاهرة ، 1979، ص473.
[2]– المقدمـــة، مرجع سابق، ص476.

كل واحد من هذه آلات متعددة، وصنائع كثيرة ويستحيل أن تفي بذلك كله أو بعضه قدرة الواحد فلا بدَّ من اجتماع القُدر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم، فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف."[1]

تحليل وتعليل وفروض ونتيجة اقتصادية واجتماعية فاقت عصرها وزمانها ونافست رواد العصر الحديث، إن على المستوى الاقتصادي فتقسيم العمل يؤدي إلى الاكتفاء الذاتي، بل يؤدي كذلك إلى الفائض الاقتصادي عنوان التقدم والازدهار، أمَّا المستوى الاجتماعي فالإنسان دون اجتماع لا يصل مهما أوتي من قوة أن يفي باحتياجاته، ولو كانت قليلة "قوت يوم" ولا بدَّ من اجتماع القدر الكثير من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم، وتنشأ علاقة تعاون اجتماعي بين الأفراد فتؤدي إلى الوفرة من التقدم والازدهار، وبذلك تفند الخرافات التي تعزو ثروة الأمم إلى وجود الكنوز الدفينة بها، وبرهن بأن ثراء الأمم يعود إلى عمل أفرادها وتعاونهم، وبذلك يسبق آدم سميث في مفهوم الثروة بما لا يقل عن أربعة قرون.

1. 3. 2 : العلاقة الحركية بين الأسباب والنتائج.

إن المتتبع لما أتى به ابن خلدون في فكره، والمتفحص بعين ثاقبة لما جاء في المقدمة من تفسيرات اقتصادية يجد أن ابن خلدون قد اعتمد اعتماداً كبيراً على التفسير الحركي للأحداث واستبعد التفسير الساكن الستاتيكي، وهذا يكسب ابن خلدون وحده سبقاً علمياً اقتصادياً، لأن رائد الاقتصاد آدم سميث في تفسيراته للقيمة وغيرها اعتمد في بادئ الأمر على التحليل الساكن، وعَدَّ العمل الذي هو أساس القيمة في مجتمع بدائياً ثابتاً، ولم يتفطن رواد الفكر إلى التحليل الديناميكي إلا في عهد الكلاسيك الجدد (نيو كلاسيك)، ولإثبات هذا سنستشهد بتحليله للظواهر إلى أسباب ونتائج كواحد من أساليبه الجديدة التي طبقها في دراسة العمران البشري.

إن ما يجذب الاهتمام إلى المعرفة الاقتصادية عند ابن خلدون هو أننا لا يمكن أن نجد فيها الأسباب في جانب والنتائج في جانب آخر، ولذلك فقد بدت له العلاقة بين الخلفية الاقتصادية وتأثيرات عناصر العمران كعملية مرتبطة تمام الارتباط تتحرك باستمرار على شكل سلسلة من ردود الفعل المتبادل، فضلاً عن ذلك فإنه لم يعامل عناصر العمران كقوى ذات فعل متساو، لها الأثر نفسه في سير الأحداث، وحقيقة الأمر أن ما يميّز منهج ابن خلدون هو طابعه العلمي الذي يستبعد إمكان تمتع أي عامل بمفرده بطبيعة أو صفة ساكنة مطلقة السكون أو العكس، ويفترض بدلاً من ذلك وجود تأثير نسبي وردود فعل متبادلة.[2]

---

[1]– المقدمـــة، مرجع سابق، ص41.

[2]– محمد محمود ربيع، مرجع سابق، ص62.

وحتى نبرهن على صحة ما ذكرنا؛ نسوق الدراسة التي أوردها ابن خلدون في أثر الظلم الاقتصادي في خراب العمران الذي يشرح من خلاله تلك العلاقة المتشابكة التي تربط بين الظلم الاقتصادي والتقهقر والاضمحلال الحضري.

يقول ابن خلدون: "اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها، لما يرونه حين أذن من أن غايتها ومصيرها انتهى بها من أيديهم. وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك، وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب، فإذا كان الاعتداء كثيراً عاماً في جميع أبواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك لذهابه بالآمال جملة بدخوله من جميع أبوابها،.. والعمران وفوره ونفاق أسواقه إنما هو بالأعمال وسعي الناس في المكاسب والمصالح ذاهبين وجائيين. فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب، كسدت أسواق العمران، وانتقضت الأحوال وابذعر-فر- الناس في الآفاق من غير تلك الإيالة في طلب الرزق، فخف سكان القطر وخلت دياره وخربت."[1]

إن هذه دراسة تحليلية واضحة قد لا تحتاج منا إلى زيادة تحليلها، فقلما انتبه مفكر اقتصادي وحلل مثل هذه الظاهرة، فقد يتناول المفكرون والباحثون قضية الظلم في الحقوق أو في علم الاجتماع أو الأخلاق، ولكن في الاقتصاد لم يحدث هذا إلا عند ابن خلدون حيث يحلل ظاهرة ويعلل بها ذهاب الثروة واضمحلالها عن طريق الظلم الذي يؤدي إلى ذهاب آمال الناس وتخليهم عن الإنتاج وتحصيل الفائض من الثروات لاعتقادهم بذهاب ثمرة مجهوداتهم إلى يد غيرهم مما يؤدي إلى القعود عن الكسب وتقل المعروضات ويقل معها الطلب لفراغ يد الناس من الكسب، فتكسد أسواق كل شيء ويطلب الناس الرزق في غير بلدانهم فيهجرون الدور وتخرب بهجرهم القصور.

وخلاصة هذا يوضح بكل جلاء وجود علاقة حركية ديناميكية بين الأسباب والنتائج لا تترك أيا منها بشكل جانبي فهناك حركة وتغيّر دائمان، وحلول للأسباب محل النتائج والعكس في سلسلة متصلة من ردود الفعل المتبادل.

2 : الأسس العلمية للمنهج عند ابن خلدون.

يقول ابن خلدون: "وبعد أن استوفيت علاجه، وأنرت مشكاته للمستبصرين وأذكيت سراجه، وأوضحت بين العلوم طريقه ومنهاجه."[2]

---

[1]– المقدمـــة، مرجـــع سابق، ص286.

[2]– المقدمـــة، مرجـــع سابق، ص07.

ومن هذا يتبيّن أن ابن خلدون مدرك تمام الإدراك لفنون العلم، وطرق اكتشافه، وهاهو في هذه العبارة يوضح لنا أن هذا العلم قد وضح حسب أسس علمية أصيلة، وطرائق بحث مبتكرة، وهو يقدم لهذا العلم الذي كشف عنه عن طريق أسسه العلمية فيقول: "وأعلم أن الكلام في هذا الغرض، مستحدث الصنعة، غريب النزعة، عزيز الفائدة" [1] .

إن الأسس العلمية لأي منهج تعدُّ من مستلزمات العلم الأساسية، فهي شروط لابدَّ من توافرها في المعرفة العلمية المراد رقيها لتصبح علماً مستقلاً بذاته.

ولعل الأسس العلمية التي جاء بها ابن خلدون وطبقها على علمه الجديد وشرحها مفصلاً، وبَيَّنَ مكنوناتها من أهم الأسس التي عرفتها العلوم المستنبطة قديمها وحديثها، ذلك لأن ابن خلدون في إنشاء علمه الجديد وصياغة موضوعه وبيان مسائله، والكشف عن أسباب ما يحدث فيها من تغيّرات، قد سار على هدى المنهج التجريبي الذي يعبر عن روح الإسلام، وهو منهج يقوم على التجربة وتنظمه قوانين الاستقراء. [2]

وسنحاول أن نتطرق إلى أهم الأسس العلمية للمنهج عند ابن خلدون، وهــذا في النقاط الآتية:

2. 1 : الشك.

"الشك ما استوى طرفاه، وهو الوقوف بين الشيئين لا يميل القلب إلى أحدهما، فإذا ترجح أحدهما ولم يطرح الآخر فهو ظن، فإذا طرحه فهو غالب الظن وهو بمنزلة اليقين، ويعرف ديكارت الشك بأنه الطريقة الفلسفية الموصلة إلى اليقين[3]، ومعنى ذلك أنه ينبغي للعالم إذا أراد أن يصل إلى اليقين أن ينتقد علمه، وأن يحرر نفسه من الأفكار السابقة، وأن لا يقبل أمراً على أنه حق إلا إذا عرف أنه كذلك ببراهة العقل، أي أن يجتنبَ التسرع والظن، ولا يدخل في أحكامه إلا ما يبدو لعقله واضحاً ومتميّزاً إلى درجة تمنعه من وضعه موضع الشك.[4]

وقد كان ابن خلدون كذلك في دراساته كلّها، حيث جعل من الشك والتمحيص قاعدة أساسية يصل من خلالها إلى اليقين العلمي، فقد انتقد سابقيه ممن كتبوا في التاريخ، وسجلوا الحوادث على أنهم كانوا

---

[1]– المقدمــة، مرجــع سابق، ص38.

[2] حسن الساعاتي، **المنهج الوضعي عند الغزالي**، أعمال مهرجان أبو حامد الغزالي، المجلس الأعلــى لرعايــة الفنــون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة 1961، ص05.

[3]–المرجع السابق نفسه، ص706.

[4] جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ص 705.

أبعد ما يكون عن منطق الشك والتمحيص لما ينقلوه، فجاءت معلوماتهم مزيجاً بين ما يصدقه العقل ويقبله المنطق، وبين ما هو إلى الخرافة والأساطير أقرب.

إن ابن خلدون نحا بعلمه الجديد منحى لم يكن معروفاً عند من سبقه من العلماء، فهو لم يكن شكاكاً فحسب، بل كان باحثاً مدققاً وناقداً محققاً، ولهذا فقد لجأ إلى استخدام الشك والتمحيص، في تحقيق موضوع علمه الجديد وبيان مسائله وما يعرض فيه من عوارض ذاتية، وتبدل الأحوال في الأمم والأجيال، وما لذلك كله من العلل والأسباب، وقد عمل على تمحيص المعارف وتخليصها من كل ما هو غير منطقي لا يقبله عقل علمي سليم، بل يشدد على الباحثين بعدم قبول المعارف دون تأمل ويطالب بعرضها على القوانين الصحيحة، فيطمئن حينها إلى صحتها وعلميتها.

يقول ابن خلدون: "فلا تثقن بما يلقي إليك من ذلك، وتأمل الأخبار وأعرضها على القوانين الصحيحة، يقع لك تمحيصها بأحسن وجه."[1]

وفي أمثلة ذلك أن ابن خلدون شك في أن الأسعار تبقى ثابتة لتوقفها على الكميات الحاضرة، بل ذهب إلى القول: إنَّ الأسعار تتأثر بالكميات المتوقعة، فلمجرد توقع المشترين انخفاضاً في إنتاج سلعة ما في مستقبل الأيام، فإن أسعار تلك السلعة ترتفع في الوقت الحاضر نتيجة زيادة الطلب عليها وتهافت الناس على شرائها، فضلاً عن لجوء الباعة إلى احتكارها والتقليل من عرضها فترتفع أسعارها.

يقول ابن خلدون: "وليس صلاح الزرع بمستمر الوجود ولا على وتيرة واحدة، فطبيعة العالم في كثرة الأمطار وقلتها مختلفة والمطر يقوى ويضعف، ويقل ويكثر، والزرع والثمار والضرع على نسبته، إلا أن الناس واثقون في أقواتهم بالاحتكار – التخزين- فإذا فقد الاحتكار عظم توقع الناس للمجاعات فغلا الزرع."[2]

أما طريقة الشك التي طبقها على المجال الديمغرافي، فقد استطاع أن يثبت بفعالية كبيرة التزايد السكاني وكيف يتكاثر السكان من جيل إلى جيل، وإن كان ابن خلدون لم يكتشف القوانين الرياضية الديمغرافية كزيادة معدل النمو والوفيات والمواليد وغيرها.

---

[1]– المقدمـــة، مرجـــع سابق، ص14.

[2]– المقدمـــة، مرجع سابق، ص302.

إلا أنه اكتشف المبادئ الأساسية للزيادة السكانية، وما كان ليكون هذا لولا استعماله قاعدة الشك والتمحيص فيما جاء عن روايات التاريخ عند المسعودي عن جيوش بني إسرائيل في عهد سيدنا موسى عليه السلام.

يقول ابن خلدون: "وتاهوا في بيداء الوهم والغلط، ولاسيما إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر إذا عرضت في الحكايات إذ هي مظنة الكذب ومطية الهذر، ولا بدَّ من ردها إلى الأصول وعرضها على القواعد، وهذا كما نقل المسعودي وكثير من المؤرخين، في جيوش بني إسرائيل بأن موسى عليه السلام أحصاهم في التيه بعد أن أجاز من يحق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها بستمئة ألف أو يزيدون... وينهل في ذلك عن تقدير مصر والشام واتساعهما مثل هذا العدد من الجيوش، فلكل مملكة من الممالك حصة من الحامية تتسع لها وتقوم بوظائفها، وتضيق عما فوقها، تشهد بذلك العوائد المعروفة والأحوال المألوفة...

ثم إن مثل هذه الجيوش البالغة إلى مثل هذا العدد يبعد أن يقع بينها زحف أو قتال ضيق ساحة الأرض عنها، وبعدها إذا اصطفت عن مدى البصر مرتين أو ثلاثاً أو أزيد فكيف يقتتل، ثم إن مثل هذه الجيوش البالغة إلى مثل هذا العدد يبعد أن يقع بينها زحف أو قتال ضيق ساحة الأرض عنها، وبعدها إذا اصطفت عن مدى البصر مرتين أو ثلاثاً أو أزيد فكيف يقتتل هذان الفريقان أو تكون غلبة أحد الصفين وشيء من جوانبه لا يشعر بالجانب الآخر والحاضر يشهد لذلك، فالماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء.[1]

وفي هذا يدحض ابن خلدون عن طريق شكه في تضخيم العدد بطريقة إسقاطه على واقع الحال والظروف السائدة وقواعد القتال فيجد أن هذا الإحصاء مكذوب فيه، أمَّا الشطر القادم الذي يهمنا أكثر فهو الذي استنبط منه مبادئ علم الديمغرافيا.

يقول ابن خلدون: "...وأيضاً فالذي بين موسى وإسرائيل إنما هو أربعة على ما ذكره المحققون... ويبعد أن يتشعب النسل في أربعة أجيال إلى مثل هذا العدد. وإن زعموا أن عدد تلك الجيوش إنما كان في زمن سليمان ومن بعده، فبعيد أيضاً، إذ ليس بين سليمان وإسرائيل إلا أحد عشر أبا،...، ولا يتشعب النسل في أحد عشر من الولد إلى مثل هذا العدد الذي زعموه، اللهم إلى المائتين والآلف فربما يكون، وأما أن يتجاوز إلى ما بعدها من عقود الأعداد فبعيد، واعتبر ذلك في الحاضر المشاهد والقريب المعروف، تجد زعمهم باطلا ونقلهم كاذبا..."[2]

---

[1]– المقدمـــة، مرجع سابق، ص10.

[2]– المقدمـــة، الصفحـــة نفسها.

وهكذا يتضح كيف يحلل ابن خلدون الزيادة السكانية وحركة السكان من جيل إلى جيل، وما كان ليصل إلى هذه المبادئ العلمية في علم الديمغرافية لولا منهجه العلمي الذي لا يقبل الحقائق إلا بعد فحصها وتمحيصها.

وقد ذكر ابن خلدون دواعي كثيرة دفعته للكشف عن الحقيقة العلمية، وسنحاول أن نذكر باختصار بعض أهم الدواعي عند ابن خلدون وهذا فيما يأتي:

2. 1. 1 : التقليـــد.

يقول ابن خلدون: "والمحاكاة للإنسان طبيعة معروفة، ومن الغلط غير مأمونة تخرجه مع الذهول والغفلة عن قصده، وتعوج به عن مرامه، فربما يسمع السامع كثيراً من أخبار الماضين ولا يتفطن لما وقع من تغيّر الأحوال وانقلابها فيجر بها أول وهلة على ما عرف ويقيسها بما شهد، وقد يكون الفرق بينهما كثيراً فيقع في مهواة من الغلط" [1]

ويتبيّن من هذه العبارة أن من أبواب الوقوع في الخطأ والابتعاد عن الحقائق العلمية هو تقليد ومحاكاة الآخرين، ولاسيما من سبقوا بعلم أو بجاه أو غيرهما، فإذا صاحب هذا التقليد الغفلة عن تقلب الأحوال وتغيّر الظروف، وقيس الحاضر بالماضي دون مراعاة ذلك التغيير فإنه يؤدي في نظر ابن خلدون إلى الابتعاد عن القصد والاعوجاج عن المرام. مما يؤدي إلى الوقوع في مهواة الغلط.

2. 1. 2 : الحكم على الأمور بظواهرها.

يقول ابن خلدون: "ومنها توهم الصدق وهو كثير... ومنها الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع لأجل ما يداخلها من التلبيس والتصنيع، فينقلها المخبر كما رآها وهي بالتصنيع على غير الحق في نفسه".[2]

ومما يدفع ابن خلدون للشك هو الحكم على الأمور بظواهرها والجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع، وسبب ذلك في نظره هو ما يداخلها من التلبيس والتصنيع، فيأتي الأمور على غير حقيقتها وكنهها، وهذا كافٍ ليجعل ابن خلدون يلجأ إلى الشك والتمحيص للوصول للحقائق العلمية.

2. 2 : الواقعية الاقتصادية والاجتماعية.

الواقعية الاقتصادية والاجتماعية عند ابن خلدون تقتضي النظر إلى الحقائق الاجتماعية والاقتصادية، ومحاولة الكشف عما يعرض لها لذاتها ووفق طبيعتها.[1]

---

[1]– المقدمـــة، مرجع سابق، ص29.

(2)– المقدمـــة، مرجـــع سابق، ص35.

[1]–المرجع الأسبق نفسه، ص63.

يقول ابن خلدون: "...فيكون فكراً راغباً في تحصيل ما ليس عنده من الإدراكات فيرجع إلى من سبقه بعلم أو زاد عليه بمعرفة أو إدراك أو أخذه ممن تقدمه من الأنبياء الذين يبلغونه لمن تلقاه فينقل ذلك عنهم ويحرص على أخذه وعلمه ...ثم إن فكره ونظره يتوجه إلى واحد واحد من الحقائق، وينظر ما يعرض له لذاته واحداً بعد آخر ويتمرن على ذلك حتى يصير إلحاق العوارض بتلك الحقيقة ملكة له فيكون حينئذ علمه بما يعرض لتلك الحقيقة علما مخصوصاً، ويتشوف نفوس أهل الجيل الناشئ إلى تحصيل ذلك". [1]

وهكذا نرى في هذه العبارة كيف يتدرج ابن خلدون في توضيح المنهج الموصل إلى اكتشاف العلوم، ويجعل بعد التلقين عمن سبق في العلم وكذلك أخذ المعارف عن طريق المنهج الغيبي المبلغ عن طريق الأنبياء والرسل، غير أن الوصول إلى الحقائق العلمية لا تكون إلا عن طريق الفكر والنظر في الوقائع الاقتصادية والاجتماعية، ثم فحصها واحداً واحداً ومعرفة ما يعرض لها لذاته واحدا تلو الآخر، إلى أن يصبح إلحاق العوارض بتلك الحقيقة ملكة، وهذا يؤدي إلى تراكم تلك الحقائق المستقاة من الواقع علماً خاصاً يطلبه ممن يأتون بعده.

إن ما سبق يفرض على كل مهتم طرح السؤال البالغ الأهمية الآتي: "كيف يستطيع الباحث دراسة الحقائق الاجتماعية وما يلحق بها من عوارض لذاتها؟"

إن الإجابة عن هذا السؤال تبيّن المنهج العلمي الصحيح الذي اتبعه ابن خلدون مما مكنه من الوصول إلى الكشف عن قوانين العمران البشري والاجتماع الإنساني، وقد ساعد ابن خلدون على بلوغ هذه المعرفة اليقينية ذلك الاستقراء الحسي للواقعية الاجتماعية التي نلمسها في طريقة الاستدلال التي تنطلق من طرح المسائل وتتبع الأدلة التجريبية بطريقة قلما تخلو من مشاهدة محسوسة مع ربط دقيق بين الأسباب والمسببات، وقد يبدو من التماسك شبه الرياضي الذي نلمسه في فصول المقدمة أن المنهج الخلدوني ذو نموذج استدلالي من نوع واحد، مما يعطي تحليلاته الاستدلالية الاستنتاجية صبغة علمية تكاد تشبه في بنائها بنية الاستدلال الرياضي.[2]

ومن هذا يتبيّن بأن التفكير الطبيعي لابن خلدون ومعرفته بطبيعة الظواهر وأسبابها ومسبباتها يرجع بدرجة كبيرة إلى منهجه المستوحى من الواقعية الاجتماعية المتشخصة، وهي قاعدة منهجية يمكن تطبيقها بسهولة في العلوم العقلية الطبيعية، التي تعتمد على أساس الواقع المادي، وليس المتخيل الصوري.

---

[1]– حسن الساعاتي، **علم الاجتماع الخلدوني "قواعد المنهج"**، مرجع سابق، ص62.

[2]– عبد المجيد مزيان، النظريات العلمية عند ابن خلدون، دار الخلدونية، 1998، الجزائر، ص66.

وكمثال عن الواقعية الاقتصادية الاجتماعية نقدم التحليل الخلدوني الذي يقول فيه: "...الأولى في أن الاجتماع الإنساني ضروري، ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم الإنسان مدني بالطبع، أي لابدَّ له من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم، وهو معنى العمران وبيانه أن الله سبحانه خلق الإنسان وركبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء، وهداه إلى التماسه بفطرته وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله، إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجاته من ذلك الغذاء، غير موفية له بمادة حياته منه فلا بدَّ من اجتماع القدر الكثير من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم، فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف، وكذلك يحتاج كل منهم أيضاً في الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه."[1]

هذه العبارة لابن خلدون تبيّن الواقع الاجتماعي المتمثل في تعاون البشر والواقع الاقتصادي المتمثل في تقسيم العمل والتخصص وكلٌّ منهما مرتبط ارتباطاً عضوياً بالآخر، ويمكن أن نستخرج من هذه العبارة ما يأتي:

- حاجة الناس للاجتماع يبدأ بأساس إيماني وهو أن الله سبحانه هو خالق الإنسان بحاجاته وانفعالاته.
- يؤدي الاجتماع البشري إلى توفير حاجات البشر.
- يتضاعف الإنتاج بالاجتماع فيزيد على الحاجة.
- ينتج هذا الفائض نتيجة التخصص وتقسيم العمل الناتج أصلاً عن الاجتماع والتعاون البشري.

ويتضح مما سبق أن ابن خلدون كان يدعم آراءه ونظرياته في العمران البشري بالاستناد إلى الواقعية الاقتصادية والاجتماعية.

كما سبق ذكره، وبهذا يعدُّ ابن خلدون من الرواد الذين نظروا إلى الظواهر الاقتصادية والاجتماعية انطلاقاً من الوجهة الواقعية.

إن دراستنا لأهم الأسس العلمية للمنهج وهي الشك والواقعية الاقتصادية والاجتماعية لا تعني بأن بقية الأسس الأخرى أقل أهمية منها، وإنما طبيعة البحث تقتضي التلميح وإعطاء المثال الفاصل، كما أننا نعتقد بأن من أهم الأسس التي لم نذكرها بالتفصيل في هذا المطلب هي السبر والتقسيم التي تعدُّ من القواعد التي أرسى عليها ابن خلدون علمه الجديد، ذلك لأنهما عمليتان عقليتان أساسيتان للبرهان بوصفهما مسلكين أو دليلين لإثبات العلة، وهاتان العمليتان هما محور عملية الفكر الكبرى

[1]– المقدمة، مرجع سابق، ص41.

عند ابن خلدون.[1]، أمَّا الأساس الآخر وهو الحيطة عند التعميم فقد كان ابن خلدون متحفظاً عند التعميم لأن الاستقراء الناقص أو الموسع ولاسيما عبر محيط المجتمعات البشرية المتفاعلة غير يقيني.[2]

2. 3 : الأساس التحليلي في المنهج الخلدوني:

عرفت الدراسات الاقتصادية منهجين في التحليل أحدهما يرتبط فيه التحليل على ما يجب أن يكون، ومجاله هو القيم والغيبيات ويدعى بالمنهج المعياري، أمَّا المنهج الثاني الذي يرتبط فيه التحليل على ما هو كائن، ولا يرتبط إلا بما هو مجرب ويقيني فيسمى بالمنهج الموضعي.

وكما سبق أن رأينا فإن ابن خلدون يعتمد اعتماداً رئيسياً على الملاحظة والتجربة، أي إنَّ منهجه يقوم على تحليل ما هو قائم، أي على المنهج الموضعي، الذي يعمل على تميّز الحق من الباطل في تحليل الظواهر، واستنباط تصحيحها من الأخبار، وفي هذا يقول ابن خلدون: "وأمَّا الأخبار عن الواقعات فلا بدَّ في صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة فلذلك وجب أن ينظر في إمكان وقوعه وصار فيها ذلك أهم من التعديل ومقدماً عليه، إذ فائدة الإنشاء مقتبسة منه فقط وفائدة الخبر منه ومن الخارج بالمطابقة، وإذا كان ذلك فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار بالإمكان والاستحالة أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران ونميز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه، وما يكون عارضا لا يعتد به وما يمكن أن يعرض له.

وإذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا قانوناً في تمييز الحق من الباطل في الأخبار والصدق من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه، وحينئذ، فإذا سمعنا عن شيء من الأحوال الواقعة في العمران علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتزييفه، وكان ذلك لنا معياراً صحيحاً يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه وهذا هو غرض هذا الكتاب الأول من تأليفنا وكأن هذا علم مستقل بنفسه "فإنه ذو موضوع وهو العمران البشري والاجتماعي الإنساني وذو مسائل وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى، وهذا شان كل علم من العلوم وضعياً كان أم عقلياً[3].

ويتبيّن من النص السابق بأن الأساس التحليلي في المنهج الخلدوني قائم على ما هو كائن، أي النظر في الواقع وتحليله وإخضاعه إلى ما يحكم بقبوله مما يحكم بتزييفه، وهو المعيار الصحيح الذي يتحرى به عن صدق القوانين الطبيعية التي تتسبب في حدوث الظواهر.

---

[1]– حسن الساعاتي، **علم الاجتماع الخلدوني**، مرجع سابق، ص162.

[2]–المرجع السابق نفسه، ص195.

إن ابن خلدون بحكم انتمائه العربي الإسلامي يعدُّ المنهج المعياري والمتمثل بشكل رئيسي في أحكام الشرع "النقل" الطريق الأول للمعرفة، كما أنه نظر في العمران البشري أي الواقع وتحليله موضوعياً، وهذا ثابت له كذلك، وقد حكم على انحرافات الواقع بمعيار الشرع، وهو ثابت له كذلك، هذه الثوابت الثلاثة تجعل تحليل ابن خلدون من حيث المعيارية والموضوعية ذا طبيعة خاصة، إنه أعمل المعيارية حيث يجب أن تعمل، وأعمل الموضوعية في طبيعة مجالها العلمي الذي يمكن أن تعمل فيه.

إن هذا يعدُّ أحد مظاهر تفوق الفكر الخلدوني إذا ما قارناه بما جرى عليه الأمر في الفكر الاقتصادي الأوروبي، حيث اعتمد الأوروبيون على المنهج المعياري اعتماداً كاملاً في القرون الوسطى حيث كان الفكر اللاهوتي يسيطر على مجرى الحياة كاملة، والاقتصادية خاصة، كما اعتمدوا على المنهج الموضوعي منذ القرن الثامن عشر، وهم في كلا الأمرين أخطؤوا منهجياً[1]

ويمكن الوصول مما سبق إلى أن ابن خلدون اعتمد في تحليله على كلا المنهجين، المعياري والموضوعي، وقد أعمل كلاً من المنهجين بطريقة لا تنفى صفاته العلمية.

ففي رصد تحليل الظاهرة الاقتصادية أو المتغيّر الاقتصادي اعتمد ابن خلدون على المنهج الموضوعي، في حين استعمل المنهج المعياري في الحكم على السلوك الاقتصادي للفرد أو الدولة، وهذا يجعل ابن خلدون من المفكرين الذين أسهموا في علم الاقتصاد عن طريق المنهج الموضوعي، كما أسهم في المذهب والنظام الاقتصادي عن طريق المنهج المعياري.

النتائج:

من خلال دراستنا للموضوع والمنهج يمكن أن نجمع الطرق الموصلة إلى المعرفة الاقتصادية عند ابن خلدون في النقاط الآتية:

2. 3. 1 : استعمل ابن خلدون في سبيل الوصول إلى المعرفة الاقتصادية مجموعة من الأدوات ومن أهمها الشرع، والعقل والحدس والملاحظة والتجربة.

2. 3. 2 : يعدُّ ابن خلدون أن المعرفة الغيبية التي أصلها الشرع هي أول الطرق الموصلة إلى المعرفة الاقتصادية العلمية لأن مصدرها من خالق البشر أو من رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى.

---

[1]– رفعت السيد العوضي، **تراث المسلمين العلمي في الاقتصاد**، المساهمة العربية العقلانية، مركز صالح عبد الله كامل، القاهرة، 1998، ص 72.

2. 3. 3 : يرى ابن خلدون أن العقل يصبح طريقاً للمعرفة فيما ليس فيه شرع، ذلك لأن العقل غير قادر على تصحيح ما جاء به الشرع لأن في الشرع أموراً لا يقوى العقل على إدراكها[2]

2. 3. 4 : التجربة والملاحظة في نظر ابن خلدون من أهم الطرق الموصلة إلى الحقائق العلمية، ولذلك فإن النزعة التجريبية هي السمة البارزة في الوصول إلى المعرفة الاقتصادية عنده.

2. 3. 5: تعدُّ الممارسة الميدانية، والتجربة المعيشة، المصدر الرئيسي الذي قاد ابن خلدون إلى المعرفة الاقتصادية عنده.

2. 3. 6: يعدُّ ابن خلدون الحدس طريقاً من الطرق الموصلة للمعرفة الاقتصادية، ولعل ما جاء في تأويل رؤية الملك من طرف سيدنا يوسف عليه السلام وما جاء في صدقها من أمور التخطيط الاقتصادي طويل الأمد دليل على صحة هذا الطريق المعرفي المشروط عند ابن خلدون بشروط إيمانية أولها المجاهدة لمن يستطيع الوصول إلى المعرفة الحدسية، وبهذا يكون ابن خلدون ربط الحدس بالشرع، ومن أمثلة المعرفة الحدسية في مجال الاقتصاد تلك التي تقوم على التنبؤ مثل الجدوى الاقتصادية، والسياسة الاقتصادية، والتخطيط الاقتصادي.

وبهذا نعتقد أننا فصلنا في المنهج العلمي لابن خلدون الذي حقق بواسطته قصده، والذي يشكل الشرط الثاني لمنشأ علم الاقتصاد عند ابن خلدون.

الخلاصة:

وفي الأخير نشير أنه مع أن زمن ابن خلدون مختلف عن زماننا، وعصره لا يشابه عصرنا، ومصطلحاته الاقتصادية لا تلفــظ مثل مصطلحاتنا إلا أن جوهر المعرفة الاقتصادية عنده بقي ثابتا، واستوفى شروطه وقياساته جميعها، وتحدد تحديداً علمياً ودقيقاً الغرض في الدراسات الاقتصادية التي قدمها، وقد تبيّن كيف استعمل العقل بوصفه مصدراً للمعرفة الاقتصادية وبينها مراحل الإدراك حيث أخضع معرفته للموضوعية العلمية لترتقي إلى مصاف العلوم.

---

(2)- المرجع السابق نفسه، ص 67.

الهوامش

1- المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي، دار النهضة مصر، القاهرة، 1979.

2- الطبري، تاريخ الأمم والملوك، المطبعة الحسينية، تاريخ الطبع غير مذكور.

3- حسن الساعاتي، المنهج العلمي في مقدمة ابن خلدون، مهرجان ابن خلدون، القاهرة 1962.

4- حسن الساعاتي، المنهج الوضعي عند الغزالي، أعمال مهرجان أبو حامـــد الغزالـــي، المجلـــس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة 1961.

5- جميل صليبيا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1978.

6- رفعت السيد العوضي، تراث المسلمين العلمي في الاقتصاد، المأسهمة العربية العقلانيـــة، مركـــز صالح عبد الله كامل، القاهرة، 1998.

7- عبد الرحمن ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت، ط 6، 1986.

8- عبد المجيد مزيان، النظريات العلمية عند ابن خلدون، دار الخلدونية، 1998، الجزائر،

9- فضيل ديليو وآخرون، أسس المنهجية في العلوم الاجتماعية، منشورات جامعة قسنطينة، الجزائر 1999.

10- محمد محمود ربيع، النظرية السياسية لابن خلدون، دار الهناء للطباعة، القاهرة، 1981.

11- محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون، العصبية والدولة، دار النشر المغربية، 1982.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2008/10/22.